بين يدي مكاشفات(*)

بعد غياب طويل عن (الرسالة) ها قد عادت (مكاشفات) من جديد لمحبيها ومتابعيها، وهذه المرة بلون مختلف جداً ولرجل معمّم مثير للجدل حتى بين أبناء طائفته. تعمدنا استضافة الشيخ حسن الصفار أحد أقطاب طائفة الشيعة بالمملكة العربية السعودية استجابةً منا لدعوات سمو ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز حفظه الله المستمرة، التي تحض المجتمع وأفراده وعلماء الأمة على الانفتاح وعدم الانغلاق على مختلف المذاهب، وهي الرسالة الجلية التي تتبدى دوماً في تلك الرعاية الأبوية لمؤتمرات الحوار الوطني؛ إذ يحرص - حفظه الله - في كل أحاديثه على حثّ أطياف المجتمع الفكرية على الحوار والالتقاء وبلورة أرضية نتعايش فيها جميعاً، نحن الذين نتفيأ ظلال وطن يسكن منا القلوب وننعم بخيراته..

حرصاً منا على كل ذلك ولأجل وطن متماسك النسيج ومترابط البنيان كان اختيارنا للشيخ حسن الصفار. وأعرف أن كثيرين من أحبتنا الذين لم يعتادوا ذلك، ومازالت حواجز نفسية عميقة الجذور ومترسبة من الماضي تقف حائطاً صلداً أمام أي محاولات للحوار والقفز على تلك الإشكاليات التاريخية المتوارثة، التي تقف عائقاً حقيقياً أمام أي محاولة للتفاهم والتعايش بله الاعتراف والقبول.

ربما كان في ذلك بعض الحق، وأعترف باستحالة فكّ تلك المداميك المذهبية المتمنعة، لكننا نسعى هنا إلى البحث عن صوت معتدل لدى الآخر الطائفي، شريكنا في الوطن، كي نصل معه إلى أرضية مشتركة نتعايش من خلالها تحت مظلة الوطن الواحد. وما نتمناه من الإخوة الأحبة المعترضين هو إدراك حقيقة أن اللعبة السياسية هي في الصميم من المشكلة، ولعلهم قرأوا مواقف المتربصين بمجتمعنا

(*) نشرت الحلقة الأولى كاملة في ملحق الرسالة بتاريخ ١٤٢٥/٨/١٧هـ .

وتماسكه ورسالته وهويته، كما عكسها بيان لجنة الحريات الدينية في الكونغرس الأمريكي، وما انطوى عليه من عزف فاضح وصارخ على الوتر الطائفي في بلادنا، والخلاصة أننا نأمل من الإخوة أن يتلمسوا بحق ظروف المرحلة التي نعيش، علماً بأن هذه المكاشفات أجريت قبل ذلك التقرير بأكثر من أسبوع.

أزعم أن ثالث سبب لي في اختيار ضيفي هو تقديم وثيقة تاريخية يستفيد منها المجتمع والدعاة تحديداً والأكاديميون والباحثون في جامعاتنا، وذلك عبر محاولة تقديم توثيق معقول للحراك السياسي والاجتماعي والفكري لدى شريحة كبيرة من مواطني المملكة تضرب بجذورها في تاريخ المنطقة.

ولعلها المرة الأولى في صحافتنا التي يلقى فيها الضوء على طرائق التنشئة الاجتماعية وظروف المعيشة لهذه الفئة، إضافة إلى كيفية تلقيهم للعلوم المذهبية عبر سبر دقيق ستطالعونه في حلقات الحوار.

من حق الرجل عليّ أن أشهد له بالأدب الجمّ والتواضع الكبير، كما أنه محبوب من قبل شباب طائفته نظرًا لطروحاته الفكرية والطائفية الوسطية التي تدعو للتعايش والتفاهم، وقد استقبلني بالترحاب في منزله بالقطيف، واستمهلني لغدي في إجراء المكاشفة كي يفاجئني في المساء بتقديمي كضيف لمجلسه الأسبوعي الذي تصورته حكراً على بضع عشرات، فإذا بي أمام عتاة رجالات المنطقة باتجاهاتهم الفكرية كافة. وكان ثمة رموز فكرية وصحافية ودينية ورجال أعمال موجودين في المجلس الذي امتلأ عن آخره. وقد قلب الشيخ اللعبة عليّ، فكانت المكاشفة معي لا معه.

في الحوار أسمعني الإخوة كثيراً من آمالهم وهمومهم وتطلعاتهم وشعرت حقاً بوطنية حقيقية تسري في ذلك الجمع، وأعترف بأنني استمتعت بحديث صادق في مجلس مبارك وصريح، تناولنا فيه قضايا الوطن. وأزعم أنني محضت النصح وقد

صارحتهم بضرورة قراءة الخارطة الوطنية جيداً، وعدم القفز على المراحل، وعدم نسيان أن كياننا المتماسك قام على تحالف تاريخي بين الإمامين ولا يمكن لأي عاقل أن يغفل هذا.

وسنكمل لاحقاً في العدد القادم وأترككم مع ضيف مكاشفات فضيلة الشيخ حسن الصفار.

عبد العزيز قاسم

*****

بداية نشكر لك تفضلك بالموافقة على أن تكون ضيفاً في (مكاشفات)، ومن وحي الحوار الوطني الذي يقوده سمو ولي العهد، نترجمه واقعاً عبر هذه المكاشفة معك يا شيخ حسن. ودعني ابتداء أطلب (صك أمان) منك تجاه مريديك، فثمة حساسية شديدة لي مع الشرعيين بعد مكاشفاتي مع الشيخ عائض القرني الذي غضب بعض مريديه ومحبيه من أسئلتي الصريحة، وبعثوا رسائل عاتبة جداً في قضية الأسئلة كونها بزعمهم لم تكن خليقة بالشيخ. وعطفاً على ذلك فأنا أريد (صك أمان) منك أشهره تجاه محبيك. لم تكُ لي مشكلة مع المثقفين، فهم (ملطوشون) على أية حال ولا يتمتعون بمريدين ولا غير ذلك. وعليه أتوسم منك كلمة لتلامذتك ومحبيك كي أمضي بأسئلتي في صراحة شديدة؟

- أولاً أشكر لكم هذه الزيارة وأشكر لكم إتاحة هذه الفرصة عبر هذا الحوار للتخاطب مع القراء الكرام ومع المواطنين في مختلف المناطق ومن مختلف الاتجاهات، وأعتقد أن قراءة بعضنا بعضاً هي أول خطوة في طريق التعايش والتعارف، ومن ثم التعاون من أجل المصلحة المشتركة لديننا ودنيانا، وأعدكم بأن يكون الحديث بحرية كاملة، فلا أعتقد أن هناك شيئاً يجب إخفاؤه. أما فيما يرتبط بالنشر فأنتم تقدرون الظروف وتعلمون ما ينشر وما لا ينشر.

أما بالنسبة لي فأعتقد أنني في وضع يفرض علي ويتطلب مني أن أكون واضحاً في طرح الإجابات والأفكار والمطالب والتطلعات، وليس هناك عائق يمنعني أو يمنع أمثالي من أن يكون حراً منطلقاً في طرحه في حدود المحافظة على المصلحة العامة والالتزام بآداب الحوار والتخاطب في الإسلام.

بالنسبة للأتباع والمريدين أنا أعتقد أن الحالة الدينية أو الشيوخ والعلماء كرسوا لأنفسهم في نفوس أتباعهم موقعية وهالة من الهيبة تمنع الكثيرين من أبناء المجتمع أن يتكاشفوا معهم وأن يكونوا صريحين وجريئين في التخاطب معهم،

وأعتقد أن هذا ينبغي أن يزال، فالنبي ﷺ، حينما وقف أمامه أعرابي وكان يرتعد، قال له: هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة. كلما كان عالم الدين أكثر بساطة مع الناس استطاع أن يدخل إلى قلوبهم أكثر وأن يؤثر عليهم وأن يستقطبهم أكثر، ونحن نعيش في عصر نجد فيه كبار القادة وكبار الساسة بيدهم مصادر أزمة القوة والسلطة، ولكن الناس لديهم الجرأة في انتقادهم والاعتراض عليهم ومخالفتهم ولا ينبغي للعالم ولرجل الدين أن يتلذذ أو يرتاح بأن تكون له هيبة مانعة من الانفتاح عليه أو مصارحته. ولكن كثيراً من هذه الحالات ناتج من احترام الناس لدينهم واحترام الناس للعلماء باعتبارهم مصادر للدين.

وفي مجلسي هذا المتواضع، حاولت أن أكرس هذه العادة بأن تتاح الفرصة للناقد، حتى الناقد لي والمعترض على بعض آرائي ومواقفي وأفكاري وأن يتحدث بكل صراحة، وفي بعض الأحيان قد يتحسس بعض الحاضرين ويرى أن مثل هذه الطريقة من التخاطب لا تجوز في مجلسي، ولكنني أُطبّع الحالة وأهون من الأمر، لذلك أعدك بأنني سأتحدث مع كل من أرى منه انزاعجاً بأننا يجب أن نتقبل المصارحة والمكاشفة؛ لأنها هي الأسلوب الأمثل والمناسب لمعالجة الملفات المزمنة والحساسة.

تقية أم براغماتية مرحلية

هذه بداية تبشر بالخير يا شيخ حسن، وأنا سعيد جداً بهذا النفس الانفتاحي، وقبلها بصك الأمان منك (ضاحكاً). وكم نحن بحاجة إلى تجسير الهوة بين أجيالنا وبين علمائهم ودعاتهم. وقبل أن أباشر أسئلتي، دعني أكن صريحاً معك، بأن طيفاً غير قليل من قراء هذه المكاشفة سيصرفون حديثك ويتوجسون من أنها قد تدخل ضمن نطاق التقية أو البراغماتية المرحلية.. وأستأذنك في طلب تعليق على ما سمعت.

- هذا الموضوع سبق الحديث عنه في مناسبات عديدة، وهذا يدخلنا في بحث حول ما يثار عن الشيعة في استخدامهم للتقية، ومن المؤسف جداً أن من نتائج الصراع المذهبي التنكر لبعض المفاهيم الدينية. مفهوم ديني يجري التنكر له بسبب الصراع المذهبي. التقية ليست قضية مطروحة عند حدود المذهب الشيعي، ولكنها قضية قرآنية يطرحها القرآن ويطرحها الإسلام بشكل عام، القرآن الكريم فيه آيات عديدة تؤكد أن الإنسان إذا كان في موقع يخاف على نفسه الضرر أو يكون في موقع يسبب له مشكلة من إظهار رأيه وعقيدته فان له أن يلجأ إلى التكتم على رأيه وعقيدته حفاظاً على حياته ومصلحته. إن القرآن الكريم يقول: ﴿ **إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** ﴾ والقرآن يقول: ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالأِيمَانِ** ﴾ والقرآن يقول: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** ﴾ ففي القرآن الكريم آيات تدل على هذا الأمر إضافة إلى القاعدة العامة ﴿ **إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** ﴾ وحينما نعود إلى كتب التفسير نجد كل عالم يمر على هذه الآيات يستعرض هذا المفهوم، وفي الفقه نجد موارد مختلفة يبحث فيها الفقهاء أثر الإكراه والاضطرار.

ولكن الاحتجاج هنا يا شيخ حسن قائم على افتراض أن هذه حالات استثنائية تقدر بقدرها وفي نطاقها الأضيق والاضطرار الشديد إليها. ولكننا نلاحظ بأن الإخوة الشيعة توسعوا في ذلك وجعلوه أصلاً من أصول طائفتهم؟

- هذا التوسع فرضته ظروف يعيشونها، نحن يجب أن نناقش المبدأ.. هل التقية مفهوم موجود في الإسلام؟ حينما يعاب على الشيعة استخدام التقية وتعد مأخذاً من المآخذ عليهم، ما يفهمه عامة المسلمين أن التقية ليست موجودة في الإسلام، وهم يستخدمون شيئاً لا يصح استخدامه. ما يجب أن نميز هو أن المبدأ موجود أم لا؟ أما عن قضية التوسع فهذا يعود إلى الشخص نفسه في تقدير الظروف، وكل الفقهاء يقولون بالنسبة للحرج والاضطرار: إن شخص الإنسان هو

الذي يقدر مقدار الاضطرار حينما يجيز الفقه الإسلامي للمضطر أن يأكل الميتة. مقدار الاضطرار وظرف الاضطرار ليس الفقيه هو الذي يشخصه، وإنما يشخصه الإنسان نفسه، فهذا التوسع فرضته ظروف للشيعة أنفسهم.

هناك نقاش بين العلماء، آلتقية موردها فقط من الظالم الكافر أو أنها أيضاً تكون من الظالم المسلم؟. بعض علماء السنة ربما يقولون إن التقية من الظالم الكافر وإن الآيات الكريمة التي تحدثت عن التقية إنما هي في سياق التقية من الظالم الكافر، وبعض علماء السنة وكل علماء الشيعة يرون مفهوم التقية أوسع حيثما كان هناك حاجة واضطرار إليها. فمذهب الإمام الشافعي مثلاً: أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة عن النفس. وجاء في الموسوعة الفقهية التي أصدرتها وزارة الشؤون الإسلامية في الكويت ج١٣ ص ١٩٦:

«والحنابلة لا يقرون الصلاة خلف المبتدع والفاسق في غير جمعة وعيد؛ إذ يصلّيان بمكان واحد من البلد، فإن خاف منه إن ترك الصلاة خلفه فإنه يصلي تقية ثم يعيد الصلاة... وقد ذكر ابن قدامة حيلة في تلك الحال يمكن عدها من التقية لما فيها من الاستتار، وهي أن يصلي خلفه بنية الانفراد».

وحينما أُخذ العلماء من أهل السنة في عهد المأمون والمعتصم وامتحنوا ليقولوا بخلق القرآن استخدموا التقية إلا أربعة أو خمسة.

من ناحية أخرى فالتقية حين يبحثها الشيعة إنما يبحثونها في إطارين: الإطار الأول دفع الضرر الشخصي أو فلنقل: دفع الضرر المادي عن الشخص أو عن المجتمع. والإطار الثاني دفع الضرر عن الأمة وعن الوحدة الإسلامية ويعنون بذلك أنه إذا كانت ممارسة حكم من الأحكام المقرة في المذهب تبرز حالة من الانشقاق

في الأمة أو التمزق، فإن المذهب يجيز لأبنائه ترك ذلك حفاظاً على الوحدة لأولوية الوحدة وأهميتها، وهذا ينبغي أن يحسب للمذهب كامتياز وليس مأخذاً عليه.

مراتع الطفولة العذبة

أتصور أن هذه بداية ملتهبة واشتباك ساخن له ما بعده. ودعني أقل لك بكل صراحة بأن ردوداً مخالفة وحادة ستأتيني، وسيوضح طلبة العلم رؤيتك هذه اعتراضاً أو تأييداً في مناخ اختلاف شرعي، وسأنشر منها ما كان موضوعياً مهما كانت حدته.. وعلى نهج المكاشفات سأبدأ معك من سني الطفولة ومراحلك الأولى.. هلا حدثتنا يا شيخ حسن عن ظروف ولادتك وتنشئتك الاجتماعية التي ترعرعت عبرها.

- ولدت سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، وكانت ولادتي في مدينة القطيف، والأسرة التي نشأت فيها كانت محدودة الحال من الناحية المادية، ولكنها من الأسر المهتمة بالشأن الديني والاجتماعي؛ لأن جدي لأبي كان عالم دين، وكذلك جدي لأمي كان خطيباً، وبعض أعمامي وبعض أقربائي وحتى والدي نفسه كان يمارس شيئاً من الأدوار الدينية، حيث درس مقدمات العلوم الشرعية لمدة ثم فرضت عليه الظروف الحياتية أن يعمل وأن يصبح كاسباً في أعمال مختلفة، ولكنه بقي يمارس بعض الأدوار الدينية المحدودة، فنشأت في هذه الأسرة ونشأت في بيئة محافظة من الناحية الدينية والاجتماعية، وتعرفون طبيعة المجتمع الشيعي؛ فلديه مجموعة من المواسم والمناسبات الدينية التي تشد الإنسان إلى دينه ومجتمعه، عندنا أيام عاشوراء في مطلع كل سنة هجرية لمدة عشرة أيام يكون هناك ما يشبه الموسم الديني الثقافي الاجتماعي العام، كل أبناء المجتمع نساءً ورجالاً كباراً وصغاراً يشاركون في هذه المناسبة، وهي ذكرى استشهاد الإمام الحسين بن علي سبط

رسول الله ﷺ وبهذه المناسبة تعقد مجالس نطلق عليها مآتم، وهي محاضرات يميزها إثارة العواطف تجاه مأساة أهل البيت وما حدث لهم في كربلاء سنة ٦١هـ، وفي شهر رمضان وطوال لياليه تكون هناك مجالس دينية للوعظ والإرشاد، وذكر سيرة النبي ﷺ وسيرة أهل البيت - رضي الله عنهم - والأحكام الشرعية المتعلقة بالصوم والصلاة وبقية الأحكام الفقهية، وهناك اهتمام بمواسم وذكريات أئمة أهل البيت، كل إمام في أي يوم ولد حسب الروايات الموجودة في التاريخ وفي أي يوم مات، تعود المجتمع الشيعي أن يحيا يوم ميلاده وذكرى وفاته، وفي هذه المجالس يأتي الخطيب ويتحدث عن سيرة الإمام صاحب الذكرى، وكنت من صغري أذهب مع والدي لهذه المجالس، فرغبت من صغري في أن أسلك هذا الطريق، وأتقمص دور الخطيب الذي يخطب في الحاضرين في هذه المناسبات، وأتذكر أنني كنت في الصف الرابع الابتدائي وكنت في العاشرة حين بدأت أجمع الأطفال من أبناء منطقتي وأخطب فيهم كما يخطب الخطيب في المجلس الديني.

حقيقة أنا أحرص جداً على رصد هذه الأجواء التي سيقرؤها كثير من محبي (الرسالة) وأزعم بأنهم سيطالعون لأول مرة على هذه التفاصيل الدقيقة لطائفة الشيعة بالمملكة وتكون كوثيقة تاريخية واجتماعية في رصد الحالة الشيعية وظروفها. وبعيداً عن موقفي الشخصي المعارض منها وموقف أهل السنة والجماعة مما تحدثت؛ لأنني أسألك كصحافي وليس كشرعي سأناقشك مناقشة تخصصية تاركاً ذلك لطلبة العلم.. وسؤالي التالي بعد هذه التوطئة: هل أتممت حفظ القرآن في هذه السنة العاشرة؟

- لا، لم أحفظ القرآن كله، وإنما تعلمت قراءة القرآن كله، وحفظت أجزاء منه في الكتاتيب التي كانت متوافرة آنذاك، وكانت تعلّم تلاميذها قراءة القرآن، ولم تكن لدينا مدارس لتحفيظ القرآن.

بدأت أمارس دور الخطيب مع الأطفال من محلتي، فلفت ذلك نظر بعض الكبار، وبدأوا يحضرون حتى يستمعوا، فرأوا أنني ألتقط ما أسمع من الخطباء والعلماء وأعيد طرحه، وباعتبار أنني كنت في مرحلة مبكرة من العمر لفت هذا الأمر الانتباه فصار الكبار يدعونني لكي أخطب، فصرت - وكنت آنذاك في الثانية عشرة - أمارس الخطابة كأي خطيب من الخطباء الموجودين في البلد، ولصغر سني كان ذلك لافتاً، وكانت هناك حفاوة من أبناء مجتمعي، وتشجيع لي على هذا المسار، ثم عندما سمع الأهالي في الأحساء أن هناك صغيراً في السن يقرأ ويحفظ ويخطب دعيت إلى الأحساء وبدأت أخطب هناك، ثم دعيت إلى مناطق أخرى إلى الكويت وإلى البحرين، وكان يشفع لي صغر سني، فهذا دفعني أكثر إلى التخصص في دراسة العلوم الشرعية بعد أن أنهيت المرحلة الابتدائية.

بعد هذا السبر العريض، بودي أن تتذكر لنا بعض أساتذتك وشيوخك الذين تأثرت بهم إبان تلك الحقبة المبكرة؟

- تأثرت بمجموعة من الخطباء في مسلكي الخطابي الذين كانوا يمارسون دور الخطابة في البلد، ومنهم الخطيب السيد هاشم السيد شرف الحسن - رحمه الله - (١٣٢٣ - ١٣٨٧هـ) من مدينة صفوى، والخطيب الشيخ عبد الحميد المرهون، والخطيب الشيخ سعيد أبو المكارم وهما موجودان يحفظهما الله، وخطباء آخرون، ولكن هؤلاء الخطباء الثلاثة وبشكل رئيس تأثرت بهم أكثر من بقية الخطباء وربما في بعض الأحيان أحفظ نسبة كبيرة من المواضيع التي يطرحونها، أحفظها وألقيها في مجالس أخرى وعلى مستمعين آخرين. بعد ذلك انفتحت على الكتاب وبدأت أقرأ الكتب وأمارس دور التثقيف الذاتي، وكوني أمارس الخطابة ساعدني ذلك على الاقتراب من العلماء.

وكان من أبرز العلماء في القطيف على المستوى الشعبي والاجتماعي الشيخ فرج آل عمران (١٣٢١هـ - ١٣٩٨هـ) وكان عالماً فاضلاً ومحلاً لثقة الناس وتقديرهم، فكنت أرتاد مجلسه يومياً خاصة في أيام عطلة الصيف، وتأثرت به كثيراً حيث كنت أستمع إلى إجابته للمستفتين والمستفسرين، وامتاز هذا العالم بانفتاحه الاجتماعي واهتمامه بالمذكرات التاريخية، وله كتاب مميز أصبح مرجعاً ومصدراً في تاريخ المجتمع والمنطقة واسمه (الأزهار الأرجية في الآثار الفرجية) كان هذا العالم يكتب مذكراته يومياً، من يلتقي معه، من يحادثه من يزوره، أسفاره وأشعاره وإجاباته الدينية، يدون كل شيء، ويطبع جزءاً بعد جزء، وعند وفاته بلغ عدد الأجزاء المطبوعة خمسة عشر جزءاً، كنت أرتاح كثيراً لهذا الكتاب، وكنت أقرأه دائماً، وربما قرأته أكثر من مرة عن طريقه، تعرفت إلى بقية العلماء، حينما يذكر مثلاً أنه زامل العالم الفلاني في الدراسة أجد في نفسي رغبة في التعرف إلى هذا العالم الذي ذكره الشيخ في كتابه، فأسأل عنه وأبحث عنه، وحتى عندما سافرت إلى العراق وإيران كان في ذهني الأسماء التي ذكرها الشيخ فرج آل عمران في كتابه ممن زارهم، فكنت أسعى لزيارتهم؛ لأن أسماءهم رسخت في ذاكرتي من خلال قراءتي لمذكرات الشيخ، وهناك علماء آخرون مثل الشيخ ميرزا حسين البريكي (١٣٢٦هـ - ١٣٩٦هـ) كان هذا عالماً وخطيباً وأديباً، كنت أحضر مجالسه، وكان هو يحضر في أحايين كثيرة مجلس الشيخ فرج آل عمران.

وكنت أستمتع جداً بحديثه؛ لأنه كان منفتحاً على الكتب الجديدة التي كانت تصدر في القاهرة ككتب طه حسين وكتب عباس محمود العقاد وكتب مصطفى لطفي المنفلوطي وكتب عبدالله العلايلي وجورج جرداق وجورجي زيدان وغيرهم، وكان ينقل عبارات من هذه الكتب، وهذا ما دفعني للاطلاع على هذه الكتب أيضاً، فصرت أقرأ وأتابع هذه الكتب. ومن العلماء الذين تأثرت بهم الشيخ عبدالحميد

الخطي (١٣٣١ - ١٤٢٢هـ) القاضي السابق لمحكمة الأوقاف والمواريث في القطيف، وكان عالماً أديباً يدرس مسائل الفقه كل ليلة في مسجده بعد صلاة المغرب والعشاء، فكنت أواظب على الحضور، واستفدت من دروسه كثيراً كما كنت أحضر مجالسه، ويدور فيها حديث الشعر والأدب حيث كان شاعراً ناقداً. وتأثرت كذلك بالشيخ علي المرهون، وكان عالماً خطيباً متواضعاً يقطن في حارتنا نفسها.

ولكن أين علماء السنّة؟

أنا أتفهم تأثرك بعلماء طائفتك، ولكن اعذرني في هذا السؤال: ألم تتأثر ببعض علماء السنة ممن استمعت إليهم؟

- في ذلك الوقت لم يكن هناك انفتاح، ولذلك لم أتعرف على أحد من علماء أو خطباء السنة.

هل أستطيع القول بصراحة هنا، ومن وحي إجابتك، بأن هناك نوعاً من السياج الفكري المضروب حول أبناء الطائفة.. لكأن الآخر المذهبي (تابوا) بالنسبة لكم؟

- نعم، في بداية حياتي كانت ثقافتي ونشأتي في حدود البيئة الشيعية في القطيف، ولم يكن لدي انفتاح على أي عالم أو خطيب من أهل السنة، نعم، كان لدي بعض الانفتاح على بعض الكتب من خلال ما أسمع عنه من الشيوخ والعلماء، حينما يتحدثون عن كتاب من الكتب أهتم بالاطلاع عليه ومطالعته، وعلماء الشيعة مكتباتهم شاملة، مثلاً الشيخ فرج آل عمران له مكتبة، كتب السنة فيها ربما كانت تضاهي كتب الشيعة، وكذلك مكتبة الشيخ ميرزا حسين البريكي، فكنت أطلع على كتب أهل السنة، وأطالعها وأقرأها، فعلماؤنا كانوا يستدلون ويستشهدون ببعض الآراء في التفسير والفقه لعلماء أهل السنة، ولكن كتواصل اجتماعي لم يكن في بيئتنا انفتاح على علماء من خارج المذهب الشيعي. أما السياج المضروب حول أبناء الطائفة فالآخرون يتحملون مسؤوليته لموقفهم الحادّ من الشيعة الذي ينتج رد فعل طبيعي.

نحن نتحدث عن أربعة عقود خلت.. لا أدري يا شيخ حسن هل مازال عدم الانفتاح هذا قائماً لحاضرنا الذي نعيش.. وفي منطقة القطيف تحديداً؟

- هناك انفتاح عام فرضته وسائل الإعلام والتواصل الحديث وكذلك الأسفار والاختلاط في الجامعات والوظائف، ولكن على المستوى الاجتماعي مازال هناك شيء من الانغلاق من قبل الطرفين، الآن تبرز صورة أخرى، فالشيعة يرغبون في الانفتاح ويلحون للتواصل، ولكن الطرف الآخر هو المتحفظ، أنا شخصياً أذهب لزيارة الشيوخ من أهل السنة والقضاة في المحكمة الكبرى في القطيف، ولكننا فشلنا لحد الآن في إقناع أحد منهم في أن يتزاور معنا، ولم تحدث إلا حالة واحدة؛ إذ إن أحد القضاة في السنة الماضية وافق أن يحضر في منتدى الأستاذ جعفر الشايب وهو الشيخ صالح الدرويش، وكان حضوره حدثاً لمجتمع القطيف.

ندرك يا شيخ حسن أن التراكمات التاريخية الحاصلة تحتاج إلى بعض الوقت لفك مداميك أزمتها التاريخية.. هذا إذا استطاع الوسطيون والعقلاء فكها..

- نحن الآن في مرحلة توصيف الحالة، ولسنا في مرحلة التحليل، ففي التحليل هناك كلام كثير..

لا بأس، فلنعد إلى قراءتك في تلك الحقبة. لكأنها اتجهت اتجاهات دينية صرفة. ألم تك بموازاة ما ذكرت قراءات أخرى في الأدب والشعر والفكر؟

- قراءتي في تلك الحقبة في المجالات الأدبية والفكرية بالفعل كانت قليلة إلا في حدود كتابات طه حسين وكتابات عباس محمود العقاد والمنفلوطي، وهذه طبعاً محسوبة ضمن المجال الأدبي، ولكنها تخدم المعارف الدينية، كنت اقرأ ما يخدم المعارف الدينية في تلك المرحلة الابتدائية.

هل ثمة شخصية معينة تعهدت الطفل حسن الصفار آنذاك بالرعاية والتوجيه والمتابعة لما يقرأ؟

- لم يكن الأمر كذلك، بل كان رغبة واجتهاداً شخصياً، ولم يكن عندنا من العلماء من هو مهتم بأن يجمع حوله طلاباً ومريدين وأن يربيهم، أغلب العلماء الذين تعرفت إليهم يقتصرون على المستوى العام، يخطبون في الجمهور خطابات عامة، وربما كان لبعضهم طلاب يدرسون عندهم العلوم الدينية، ولكن هذا بشكل محدود، وكان لمجالس بعض العلماء دور في تنمية بعض الكفاءات الأدبية والثقافية بشكل عفوي. كانت الحركة العلمية في القطيف آنذاك مصابة بحالة من الفتور والشلل، وكان عدد العلماء محدوداً في القطيف وعدد طلاب العلوم الدينية كان محدوداً، ولكن فيما بعد حدث نوع من الاندفاع والإقبال، وخرج كثير من الطلاب للدراسة في الحوزات العلمية، فأصبح لدينا الآن عدد وفير من العلماء وطلاب العلوم الدينية، ولكن في تلك الحقبة وأنا أتحدث عن ١٣٨٥هـ كان عدد العلماء في القطيف محدوداً ويعدون على أصابع اليد في كل محافظة القطيف وقراها ومدنها. كان هناك عدد من الخطباء، ولكن ليس كل خطيب عالماً.. قليل منهم درس العلوم الشرعية، وكثير منهم كان يقتصر على قراءة التواشيح والأشعار والسير التاريخية.

بالنسبة للمدارس التي درجت فيها: أحكومية كانت أم كتاتيب؟

- نعم، درست المرحلة الابتدائية في مدرسة زين العابدين بالقطيف، والمتوسطة بمدرسة الأمين المتوسطة بالقطيف.

تبقى لسن المرحلة الابتدائية كثير من الذكريات العذبة التي لا تمّحي. ما الذي تتذكره من أحداث وعلقت بذاكرتك ولم تبارحها وأنت الآن أمامي في هذا العمر شيخ حسن؟

- الذي أتذكره أن بعض المدرسين من الفلسطينيين والأردنيين كانوا يتحدثون لنا في بعض الأحيان عن وضع فلسطين وعما يجري في الأردن، وكان بعضهم يسرب بعض الأفكار فيما يرتبط بالقومية العربية وفيما يرتبط بمصر وبجمال عبدالناصر، ففي ذهني لمحات، كنت أسمع في المدرسة بعضاً من هذه الأشياء؛ لأن أغلب المدرسين كانوا غير سعوديين، فكنت أسمع منهم عن بلدانهم، وكانت المدرسة تمثل لي انفتاحاً على نسق جديد بخلاف البيئة التي كنت أعيش فيها، هذا ما لفت نظري في تلك المرحلة، والشيء الآخر الذي أتذكر أننا كطلاب في تلك المرحلة كنا نعيش حالة من الشدة من قبل الإدارة ومن قبل المدرسين، كان هناك انضباط صارم وتعامل قاسٍ من قبل المدرسين على الطلاب، أتذكر الكثير من الحالات التي كان يضرب فيها الطلاب عند أقل خطأ بالعصا وكيف كان بعضهم يُخرج إلى الشمس، وقد يعاقب كل الفصل عقاباً جماعياً عند حصول خطأ من بعض الطلاب.

هذه كانت حالة عامة في كل مدارس المملكة.. لكن اعذرني في سؤال لـ (معلم الصبية): هل سبق لك وأن وضعت على الفلقة وبرّحت بك العصا في قدميك بتلك الأزمنة؟

- لم يحصل أن وضعت على الفلقة.. لكن حصل في بعض الأحيان أن كانت عقوبات بسيطة، وكان من أسبابها أنني كنت في أيام المناسبات الدينية باعتباري أمارس الخطابة أتغيب أو أقصر في بعض الواجبات، ولكن فيما بعد تفهمت الإدارة وتفهم المدرسون وضعي، فصاروا يخاطبونني (بالمطوع)، وعرفوا عني هذا التوجه، وأتذكر هنا قصة طريفة هي أن مدير مدرسة زين العابدين الابتدائية في القطيف الأستاذ سعد الرحيل وهو من قبيلة الخوالد من قرية عنك من قرى محافظة القطيف يسكنها إخواننا السنة باعتباره يعرف الأعراف والتقاليد الموجودة في المجتمع، ويسمع عني أنني حسب التعبير (ملاّ) وخطيب لذلك كان يعاملني تعاملاً

مميزاً ويغض الطرف عن غيابي في المناسبات الدينية خاصة في مناسبة عاشوراء التي أكون فيها مشغولاً بالخطابة لمدة عشرة أيام، وأذكر أنه في عام ١٣٨٨هـ كنت مرتبطاً بالخطابة في الأحساء فجئت إلى المدير وقلت له: إنني سأقرأ في الأحساء ولذلك احتاج إلى إجازة عشرة أيام، ولم يكن متعارفاً أن يأخذ طالب إجازة عشرة أيام، ولكن قدر ظرفي وسمح لي بالذهاب إلى الأحساء وفوجئ بطلب آخر حين قلت له: إنني لا أستطيع أن أذهب وحدي وإنما معي زميل بالصف، وإنني سآخذه معي مرافقاً. فسمح لمرافقي بذلك وسافر معي هذا الزميل، وكنت في الصف السادس الابتدائي، وعندما انتقلت إلى المرحلة المتوسطة صاروا يطلبون مني دوراً في الإذاعة الصباحية، وبالفعل كنت أدير أغلب البرامج، حتى ظهرت عندي بواكير الشعر في تلك المرحلة، فبدأت أنظم الشعر وكان شعراً بسيطاً، وأهميته تنبع من أنني كنت أتحدث فيه عن قضايا المدرسة، وكان الجميع يعاملونني باحترام باعتبار أنني كنت أمارس الدور الديني والخطابي.

التعايش الطائفي الفريد

ذكرت في إجابتك هذه قرية (عَنك) وقبيلة (الخوالد) السنية وتعامل المدير معك. لكأنني أستشف تعايشاً طائفياً صورته إيجابية جداً. غير ما ترسّخ في الذهنية البعيدة عنكم. هلا صححت لي.

- على مستوى الناس كان هناك تداخل وتواصل طيب بين السنة والشيعة في منطقة القطيف، تعلمون أن أكثرية أهل القطيف هم من الشيعة، ولكن يوجد بعض القرى التي بها أهل السنة كقرية عنك ودارين وأم الساهك وبعض القرى الأخرى، كانت علاقتهم مع الشيعة علاقة طيبة، هناك تواصل اجتماعي في الأفراح والأتراح حتى إن بعض علماء السنة في المنطقة كانوا يدرسون عند بعض علماء الشيعة، وكان

الشيخ حسن الصفار معلقاً على المداخلات:

التعارف يجب أن يكون هو هدف الحوار وليس التبشير برأي المذهب، أو تسجيل نقاط غلبة وانتصار

تحديد هدف الحوار بين أطرافه شرط مهم لإنجاحه، ولترشيد مساراته. حيث ينطوي الحوار على إمكانية الخدمة لأهداف متعددة. فإذا لم يتجه المتحاورون نحو هدف محدد، أو اختلفت الاستهدافات بين أطراف الحوار، فلن يكون الحوار ناجحاً مثمراً، ولن تنتظم إيقاعاته بشكل موضوعي سليم.

فهناك من يحاور الآخرين لإقناعهم بأحقية رأيه ومذهبه، وبطلان آرائهم وتوجهاتهم.

وهناك من يحاور لإفحام الطرف الآخر وتحقيق الغلبة عليه.

وهناك من يحاور الآخرين طلباً للمعرفة وبحثاً عن الحق.

وهناك من يحاور للتعارف وترسيم حدود الاتفاق والاختلاف مع الآخر، للتأسيس لعلاقة إيجابية بين الطرفين.

إن لكل حالة من حالات الحوار دوافعها ومبرراتها عند المتحاورين، كما أن نهج الحوار ومساراته قد تختلف بين هذه الحالات. لذلك من الأهمية بمكان أن تتحدد غاية الحوار ليتحدد نهجه ومساره. وليكون موجهاً باتجاه الهدف المنشود، حتى يحقق أعلى نسبة ممكنة من النجاح والإنجاز.

وحين عرض عليّ الأخ الكريم الأستاذ عبد العزيز قاسم - حفظه الله - إجراء حوار يتسم بالصراحة والمكاشفة، حول وضع المواطنين الشيعة في المملكة، لينشره في جريدة المدينة، ضمن ملحقها الأسبوعي المتميز (الرسالة)، بادرت إلى قبول عرضه الكريم؛ لأنني وجدت فيه فرصة طيبة لخدمة هدف عظيم، ذلك الهدف هو التأكيد على وحدة الأمة الإسلامية بشكل عام، وحماية وحدتنا الوطنية في المملكة العربية السعودية بشكل خاص.

إن الوحدة ضرورة ملحة لكل أمة ومجتمع، في كل وقت وآن، لكنها عند المنعطفات الخطيرة وأمام التحديات الصعبة تصبح أكثر ضرورة وإلحاحاً.

ونحن نعيش الآن هذه اللحظة الحرجة، فلا بد لنا من الاهتمام بجمع الشمل، ولمّ الصفوف، وتجاوز الخلافات والصراعات، لتتركز جهودنا واهتماماتنا.

واتفقت مع الأستاذ عبد العزيز على أن يكون هدف الحوار توفير فرصة التعارف المباشر بين أبناء الوطن من السنة والشيعة، لتجاوز مرحلة الظنون والنقولات، وآثار الحقبة السابقة التي أنتجتها عوامل سياسية مرت بها المنطقة الخليجية خلال العقدين الماضيين.

لقد رُسمت صور وانطباعات عند كل طرف عن الآخر، فيها الكثير من التشويش والتشويه، وتكرست تلك الصور والانطباعات في ظل أجواء القطيعة والتباعد، وتأكدت ألوانها القاتمة بفعل التعبئة والتحريض المتبادل على الكراهية.

وهنا يأتي دور المبادرات الواعية المخلصة التي تكسر الحواجز، وتقتحم الأسوار، وتنزع فتيل التشنج والحساسيات، عبر فتح الملفات بحكمة، ووضع قضايا الخلاف على طاولة النقاش الهادئ، وتناول المسائل بموضوعية تستند إلى الإقرار بحقوق الإنسان وحقوق المواطنة، ثم الاعتراف بحق اختلاف الاجتهاد والرأي، في إطار مرجعية الكتاب والسنة لمذاهب الأمة الإسلامية.

لكن هذه المبادرات لن يقوم بها إلا من كان مهتماً بمصلحة الوطن وأمنه واستقراره، ومسكوناً بهاجس الوحدة وتحصين الجبهة الداخلية، وشجاعاً يتجاوز إرهاب الأجواء المحيطة، التي تعد القطيعة مع الآخر ديناً، والخصومة مع المخالفين تكليفاً شرعياً.

وقد توسمت في أخي الكريم عبد العزيز قاسم هذه المواصفات الطيبة، من خلال متابعتي لكتاباته وحواراته السابقة، مع بعض الشخصيات الدينية والوطنية، لذلك لم أتردد في الاستجابة لطلبه الكريم، وشرفني بزيارته في القطيف، بتاريخ ٢٤ رجب ١٤٢٥هـ الموافق ٩سبتمبر ٢٠٠٤م، وأمضيت معه ساعات طويلة من الحوار، لمست فيها سعة أفقه، وحسن أدبه، وتركيزه على المصالح العليا للإسلام والوطن.

كان يطرح أسئلته الحساسة الصريحة على أساس أنها تساؤلات مطروحة في الساحة التي يعيشها، ويرى أن الإجابة عليها من الطرف المعني بشفافية ووضوح يساعد كثيراً على جلاء الصورة، وتنقية الأجواء، ويخدم توجهات الوحدة الوطنية والتقارب الإسلامي.

ولأنني مقتنع بأن التعارف يجب أن يكون هو هدف الحوار، وليس التبشير برأي المذهب، أو تسجيل نقاط غلبة وانتصار، فقد التزمت في إجاباتي بما يخدم هذا الهدف، مكتفياً بإيضاح الموقف، مع الإشارة إلى مبرراته أحياناً دون الانسياق إلى دائرة الجدل المذهبي، والتوغل في تفاصيل سجالات الخلاف العقدي والفقهي.

وأعتقد أن جهوداً كبيرة قد استهلكت من علماء الأمة وطاقات أبنائها في متاهات الجدل المذهبي الذي لا طائل خلفه، والذي شغل الأمة عن مسارات التنمية والبناء في جوانب الحياة المختلفة.

لقد استقر واقع المذاهب الإسلامية في ساحة الأمة منذ قرون، وعلينا الإقرار والاعتراف بواقع التعدد المذهبي، وتجاوز سياسات الإقصاء والتهميش والتمييز بين أبناء الأمة والوطن، وعدم المراهنة على سراب تغيير القناعات المذهبية لأي طرف من الأطراف، والمطلوب هو الاحترام المتبادل، والتعاون في بناء الوطن، وخدمة المصالح المشتركة للأمة.

وإذا كان العدل هو سياسة حكم الإسلام بين الناس على اختلاف أديانهم وأعراقهم ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾، وإذا كان الحيف على أي حق معنوي أو مادي لأحد من الناس مرفوضاً في منطق الإسلام ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾، وإذا كان التخاطب مع أتباع الديانات الأخرى مشروطاً بالتزام أحسن الآداب، ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإن التعامل الداخلي بين أبناء الأمة يجب أن يكون في أفضل صيغ التعايش والتعاون مهما اختلفت المذاهب والتوجهات.

وانطلقت من هذه القناعات في المكاشفات مع الأخ العزيز عبد العزيز، وقد نشر كل الإجابات بأمانة وإتقان، في حلقات خمس على صفحات ملحق (الرسالة)، مفرداً صفحتين كاملتين لكل حلقة، من تاريخ ١٤٢٥/٨/١٧هـ إلى تاريخ ١٤٢٥/٩/١٨هـ. وسعدت جداً بالأصداء الطيبة التي أثارتها حلقات المكاشفات، وكان لمداخلات بعض الباحثين والكتاب دور في إثراء ما طرحته المكاشفات من آراء ومقترحات، لكن بعض المداخلات كانت باتجاه الاستغراق في الجدل المذهبي، والتركيز على ضرورة تغيير القناعات والتوجهات العقدية والفقهية لدى الشيعة، وتناول بعض ما ورد في كتب الشيعة وتراثهم، ولأنني لست مقتنعاً بجدوى هذا النهج من الحوار، لم أجد نفسي معنياً بمناقشة ما ورد في هذه المداخلات أو الردّ عليها.

وأخيراً فإنني أجدد الشكر للأستاذ عبد العزيز قاسم، وللإخوة الأعزاء في رئاسة تحرير جريدة (المدينة)، وملحقها (الرسالة)، على إتاحة هذه الفرصة الثمينة

للحوار الهادف، الذي شاركنا فيه كل القراء داخل المملكة وخارجها، كما أشكر كل من تفاعل مع هذا الحوار وأسهم في إثرائه مشجعاً وناقداً، من خلال المداخلات، والكتابة في الصحافة، أو على شبكة الإنترنت، وعبر جلسات النقاش والبحث، التي بلغني انعقاد كثير منها في مختلف أرجاء الوطن متزامنة مع نشر حلقات المكاشفات.

وكذلك من خلال الاتصالات التليفونية، ورسائل البريد الإلكتروني التي تلقيتها من داخل وخارج المملكة.. إلى الجميع أتقدم بخالص الشكر والامتنان، وأرجو أن يكون نشر هذه المكاشفات تكريساً لنهج الحوار والموضوعية في معالجة قضايا الاختلاف، إسهاماً إيجابياً في تطوير العلاقات بين شرائح الوطن وفئات الأمة، باتجاه التواصل والتقارب والوحدة، لخدمة الأهداف العليا، والمصالح المشتركة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حسن الصفار

القطيف:
١٢٤٦/٥/٢٠هـ
٢٠٠٥/٦/٢٧م